

مصطلح السيرة: (مخرجه الدلالي وأطوار بروزه وسموقه)

د. عبدالرزاق مرزوك

تاريخ الإضافة: 2009/06/03 ميلادي - 1430/6/9 هجري

الحمد لله كافي عبده بسابغ رفته، والصلاة والسلام على أحمد نبيه المشرف على  
كمالات حمده، وعلى آله وصحبه المستمسكين بهدية، ومن سار بعدهم على نهجه.  
أمّا بعد:

فقد تقدم في موضوع مستقل بيان الأصل اللغوي لمصطلح السيرة، والحقل الدلالي  
المؤلف بين الألفاظ الجارية مجراه، وهذا رابطته في الموقع:

<http://www.alukah.net/articles/1/3071.aspx>

وفيما يلي استكمال ما يلزم بالحديث عن المخرج الدلالي الذي انبجس عنه هذا  
المصطلح الجليل، وأطوار نضجه الماهدة لامتداده وسموقه.

### المخرج الدلالي لمصطلح السيرة:

يعسر ضبط المراد من "السيرة النبوية" بوجه دقيق، إذا استثنينا عمومَ تعلقها بشخص  
النبي - صلى الله عليه وسلم - فهل المراد ما يتعلق من أحواله بالتشريع، أو المراد ما جلَّ  
ودقَّ من خاصة شأنه الأجل مما لا تكليفَ فيه، فتصير الغاية منه مجرد الإخبار عن النبي -  
صلى الله عليه وسلم - والتنويه بشأنه؟

يجسن قبل بيان دلالة المصطلح بيان أمرين:

الأول: المخرج الدلالي الذي يكشف اتساع الحد لاستيعاب أجزائه.

الثاني: الوقوف على أوائل استعمال المصطلح في كلام أهل هذا الشأن المتقدمين لتتبع  
أطوار تخلُّقه قبل أن ينضج ويستوي.

وقد سبقت الإشارة إلى أن السَّيرَ في اللغة "المُضِيُّ"؛ ومنه قوله - تعالى -: {قَدْ حَلَّتْ  
مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} \* هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ

وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } [آل عمران: 137 - 138]، وقد ورد في سبعة وعشرين موطنًا من القرآن الكريم، هذا أحدها، وسائرهما لا يخرج عن هذا المعنى سوى موطن واحد؛ هو قوله - تعالى - عن عصا نبيه موسى - عليه السلام - : { سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى } [طه: 21]. والسيرة - كما قال الراغب، رحمه الله - : "الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره غريزية أو مكتسبة، يقال: فلان له سيرة حسنة، وسيرة قبيحة، وقوله: { سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى }؛ أي: الحالة التي كانت عليها من كونها عودًا" [1].

وهذا المعنى وغيره في الآيات الأخرى، والفرق بينهما هو الحدُّ الفاصل بين معنى السيرة في اللغة ومعناها في الاصطلاح، وهو المرجع الذي يسوغ به ضبط المناسبة بين فحوى المصطلح وموضوع العلم الذي جعل علمًا عليه. قال الشيخ الطاهر بن عاشور في بيان معنى الآية: "والسيرة في الأصل: هيئة السير، وأطلقت على العادة والطبيعة" [2].

والهيئة: "حال الشيء، وصورته، وكيفيته" [3]، والهيء - بكسر الياء - والهيء - بكسرهما أيضًا مع التشديد - : "الحسن الهيئة من كل شيء، وأصل هذا الوصف من هيؤ - بضم الياء - : إذا جادت هيأته، ووجهه أنه خرج مخرج المبالغة؛ فلحق بيباب قولهم: قَضُو الرجل: إذا جاد قضاؤه، ورُمُو: إذا جاد رمية".

فالسيرة النبوية - من ثم - هيئة النبي - صلى الله عليه وسلم - الحسنی، وما جبل عليه من جمال الطبع وجلال الحال، وما سار به في الخلق مما خصه الله - عزَّ وجلَّ - به من عظيم الخلال وكریم الخصال، وجعله منار اصطفائه، وآية كرامته، ومظهر قربه منه، وفضله عليه.

#### الفوائد المستخلصة:

1 - أوَّل ما يومئ إليه هذا التوجيه: اتساع مخرج المصطلح الدلالي لتناول عامَّة أفرادهِ، ولا يخفى شرط المناسبة بين المصطلح وبين ما يطلق عليه، وحاجته إلى ما يكفل له الاستقلال من ذاته؛ لا سيَّما إذا وجدت مصطلحات أُخر تقع على بعض ما يقع عليه، أو يشتبه وقوعها على كَلِّه؛ فيلجأ إلى التقييد والاستثناء حال الإطلاق؛ مخافة الاشتباه.

البون بعيد - بهذا الاعتبار - بين السيرة والحديث، ومن التساهل البيّن جعلُ السيرة من الحديث لمجرد قولنا في تعريف الحديث: "ما أضيف إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو صفة" [4]؛ لأنّ المراد استقصاء المروي المتصل بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ليشمل المصطلح كاقّة المنقول الذي تقع عليه عناية المحدثين؛ كما قال الإمام عزّ الدين بن جماعة: "علم الحديث علم بقوانين يعرف بها أحوالُ السند والمتن، وموضوعه السند والمتن، وغايته معرفة الصحيح من غيره" [5].

فغايةُ اعتبار الصفة في هذا الحد لا يعني السيرة إلّا من جهة ورودها مضافة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ومشاركتها سائر أفراد الحد في كونها سنداً ومتناً، وهما ركنا علم الحديث.

أمّا السيرة، فإنّها صفات وأحوال ودرجات، المراد منها شأن آخر وراء الإضافة والإخبار، سيأتي بيّانه في محلّه، إن شاء الله.

2 - استعمل لفظ "الهيئة" في نُصوص الحديث النَّبوي للدلالة على نعتِ النبي - صلى الله عليه وسلم - في الكتب المنزلة قبله؛ كما في حديث الفلّتان بن عاصم - رضي الله عنه - قال: "كنا قعوداً مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في المسجد، فشخص بصره إلى رجل يمشي في المسجد، فقال: ((يا فلان)).

قال: "لبيك يا رسول الله"، ولا ينازعه الكلام إلا قال: "يا رسول الله".

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((أتشهد أني رسول الله؟)).

قال: "لا".

قال: ((تقرأ التوراة؟)).

قال: "نعم".

قال: ((والإنجيل؟)).

قال: "نعم".

قال: ((والقرآن؟)).

قال: "لو أشاء لقرأته".

فناشده: ((هل تجديني في التوراة؟)).

قال: "أجد مثلك، ومثل هيئتك، ومثل مخرجك" [6].

3 - من الألفاظ القريبة من لفظ "الهيئة": لفظ "الصفة"، واستعماله لنفس ما يستعمل له لفظ "الهيئة" في الحديث النبوي أكثر، ودلالته على المراد أدق؛ قال ابن منظور في اللسان: "والصفة: الحلية".

وأصل اشتقاق الحلية مُتعلق بالحسن دون القبيح، فإنه يقال: حَلِيَ فلان بعيني، وفي عيني وبصري، وفي صدري، يَحَلِي حلاوة إذا أعجبك، قال الراجز:

إِنَّ سِرَاجًا لَكَرِيمٍ مَفْحَرَةٌ تَحَلِي بِهِ الْعَيْنُ [7] إِذَا مَا بَجَّهَرَةٌ

ومن الموافقات اللطيفة الدالة على مناسبتها لهذا المقام أيضًا: تعلُّقه بالسير أصل مادة مُصطلح "السيرة"، فإنه يقال للمهر إذا توجه لشيء من حسن السير: قد وَصَفَ، ووصف المهر: جَادَ مشيئه [8].

### أوائل استعمال مصطلح السيرة:

مرَّ مصطلح السيرة أثناء بدايات نشوئه بأطوارٍ ثلاثة رسخ بها أصله:

1 - قال غيلان بن جرير: "كنا ندخل على أنس بن مالك، فيُحدثنا بمناقب الأنصار ومشاهدهم، ويقبل على رجل من الأزد، فيقول: فعل قومك يوم كذا كذا وكذا..." [9].  
قال الحافظ معلقًا على هذا الخبر: "أي: يحكي ما كان من مآثرهم في المغازي ونصر الإسلام" [10].

2 - قال سوزكين: "وقد ظهرت سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالمعنى الدقيق للكلمة في كتب كبيرة نسيبًا باسم المغازي، وقد عرفت هذه الكتب في وقت مُبكر باسم السيرة، ورمًا يكون الزهري أول من استخدم كلمة السيرة مصطلحًا لذلك" [11].

3 - قال ابن هشام في مُقدمة سيرته: "وأنا - إن شاء الله - مُبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم، ومن ولد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ولده، وأولادهم لأصلابهم؛ الأوَّل فالأوَّل من إسماعيل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما يعرض من حديثهم.

وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة للاختصار إلى حديث سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتارك بعض ما يذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيراً له، ولا شاهداً عليه؛ لما ذكرت من الاختصار".

الفوائد المستخلصة:

1 - في خبر غيلان بن جرير دلالة على وقوع العناية بشأن السيرة في زمن الصحابة - رضي الله عنهم - وأنه كان عبارة عن مجالس مخصوصة بصنف من الدرس مخصوص، وكان موضوعه: مآثر الأنصار في المغازي.

ولا جرم أن هذه المجالس كانت مهاداً لما تلاها من العناية بالمغازي والسيرة على نحو أرسخ وأشمل؛ لأن الغاية من شهود الصحابة - رضي الله عنهم - المشاهد مع النبي - صلى الله عليه وسلم - نصره ومنعه؛ فتعلقها به هو الأصل.

وفيه أيضاً إشارة إلى الصورة التي آل إليها منهج التصنيف في السيرة النبوية، وهي ذكر الأيام والأحوال على جهة الإحصاء والإشادة والتنويه.

2 - وفي كلام سوزكين التنصيص على أن الزهري - رحمه الله - أول من استعمل مصطلح السيرة، ويؤيده قول السهيلي - رحمه الله - عن سيرة الزهري: "وهي أول سيرة في الإسلام" [12].

وأفاد سوزكين أن ارتباط لفظ السيرة بالزهري أكثر من ارتباطه بسلفه ومُعاصريه ممن كانت لهم صلة بالمغازي؛ لكن ليس بأيدينا ما يثبت أنه قد عرّفه تعريفاً صريحاً.

3 - يظهر من كلام ابن هشام المستل من مقدمة تهذيبه لسيرة ابن إسحاق: أن ما استغنى عنه مما جمعه ابن إسحاق ليس من شرط السيرة عنده، وأنه لم يستبق إلا ما فيه ذكر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - من تلك الأخبار.

وقوله: "... وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة للاختصار إلى حديث سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -"، مُصرح بغاية اختصاره، وهي الاكتفاء بما يوافق عنوان الكتاب من مضامينه، وهذا يصلح لأن يتخذ ضابطاً قوياً لمصطلح "السيرة"، لا سيما

أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ قَدْ وَضَعَهُ ابْتِدَاءً فِي تَارِيخِ الْخَلِيقَةِ عَامَةً، فَلَمَّا اخْتَصَرَهُ ابْنُ هِشَامٍ صَارَ أَقْسَامًا  
ثَلَاثَةً: الْمُبْتَدَأَ، وَالْمُبْعَثَ، وَالْمَغَازِيَّ.

فَكَانَ ابْنُ هِشَامٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِتْمَا رَاعَى فِي اخْتِصَارِهِ وَضَعَ الْحُدَّ الْعَامَ لِلسَّيْرَةِ حِينَ تَرَكَ  
مَا لَا صِلَةَ لَهُ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى مَا لَهُ بِهِ صِلَةٌ عَلَى جِهَةِ  
الْإِفْرَادِ، فَهَذَا أَوَّلُ اسْتِعْمَالِ مَفْصَلٍ لِلْمِصْطَلَحِ، وَأَوَّلُ تَلْمِيحٍ إِلَى ضَابِطِهِ الدَّقِيقِ.  
وَهُوَ أَصْرَحُ وَأَكْثَرُ وَضُوحًا مِنْ اسْتِعْمَالِ الزَّهْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ذَاكَ مَجْمَلٍ، وَهَذَا مَفْصَلٍ،  
فَالزَّهْرِيُّ أَفْرَدَ السَّيْرَةَ النَّبَوِيَّةَ بِالتَّأْلِيفِ، وَابْنُ هِشَامٍ وَقَفَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ، ثُمَّ كَشَفَ ضَابِطَهُ،  
وَأَبْرَزَ مَرَاجِعَ أَفْرَادِهِ.

فَالذِّينَ صَنَّفُوا فِي السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ بَعْدَهُ، وَسَمَّوْا بِهَا مَصْنَفَاتِهِمْ - تَابِعُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَكَمَا أَنَّ  
اسْمَهُ نَسَخَ اسْمَ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي نِسْبَةِ الْكِتَابِ إِلَيْهِ، فَكَذَلِكَ غَابَتْ مَعَهُ التَّسْمِيَةُ بِالْمَغَازِيَّ،  
وَحَلَّ مَحَلَّهَا لَفْظُ السَّيْرَةِ فِي عَصُورِ التَّصْنِيفِ اللاحقة حَتَّى الْيَوْمِ، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ خُلِكَانَ  
- فِي سِيَاقِ تَرْجُمَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ بَعْدَ ذِكْرِ سَيْرَتِهِ -: "وَهِيَ الْمَوْجُودَةُ بِأَيْدِي النَّاسِ الْمَعْرُوفَةُ  
بِسَيْرَةِ ابْنِ هِشَامٍ" [13].

أَمَّا اخْتِلَاطُ السَّيْرَةِ بِالْمَغَازِيَّ فِي اسْتِعْمَالِ بَعْضِ الْمَصْنُفِينَ، فَمَرْدُّهُ إِلَى أَسْبَابٍ لَمْ  
يَقْصِدُوهَا، فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَفْرُقُونَ بَيْنَهُمَا، إِلَّا أَنْ تَغْلِيْبَ اسْتِعْمَالِ السَّيْرَةِ بَدَلًا مِنَ الْمَغَازِيَّ  
يَغْرِي الْبَاحِثَ بِتَعَقُّبِ الْمِصْطَلَحِينَ، وَالْمَوَازَنَةَ بَيْنَهُمَا.

وَقَدْ لَخِصَ ذَلِكَ مَطَاعُ الطَّرَائِشِيِّ فِي أُمُورٍ ثَلَاثَةٍ، فَقَالَ: "إِنَّ السَّيْرَةَ - بِصِيغَةِ الْمَفْرَدِ -  
امْتَازَتْ بِأُمُورٍ:

أُولَاهَا: أَهَّأَ ظَهَرَتْ أَوَّلَ مَا ظَهَرَتْ مَعَ عَمَلِ ابْنِ هِشَامٍ صَاحِبِ السَّيْرَةِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَيْهِ، فَهُوَ  
أَوَّلُ مَنْ اشْتَهَرَ بِهَا وَاشْتَهَرَتْ بِهِ.

ثَانِيهَا: أَهَّأَ تَعْبِيرٌ صَرِيحٌ عَنِ تَطَوُّرٍ فِي التَّصْنِيفِ؛ إِذْ قَامَ عَمَلُهُ فِيهَا عَلَى تَهْدِيبِ عَمَلِ ابْنِ  
إِسْحَاقَ فِي الْمَغَازِيَّ.

ثَالِثُهَا: أَنَّ عَمَلَ ابْنِ هِشَامٍ هَذَا فَتَحَ الْبَابَ لِمَنْ جَاءَ بَعْدَهُ، فَمَضَى عَلَى أَثَرِهِ الْمَصْنُفُونَ  
شَرْقًا وَغَرْبًا خِلَالَ الْأَجْيَالِ الْمُتَعَاقِبَةِ، حَتَّى كَادَ يَغِيْبُ اسْمُ الْمَغَازِيَّ فِي سِيَاقِ التَّصَانِيفِ  
الْمُسْتَفِيضَةِ فِي السَّيْرَةِ" [14].

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

- [1] "مفردات ألفاظ القرآن"، ص 433.
- [2] "التحرير والتنوير"، 1/188.
- [3] "لسان العرب"، هياً.
- [4] "قواعد التحديث"، للقاسمي، ص 61.
- [5] نفسه، ص 77.
- [6] أورده الحافظ ابن حجر في "الإصابة"، (5/377 – 378)، قال: "... وروى الحسن بن سفيان في مسنده عن عبد الجبار بن العلاء حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا بن عاصم بن كليب حدثني أبي عن الفلتان بن عاصم به"، وهذا سند صحيح، رجاله رجال الشيخين سوى عاصم بن كليب، فإنه من رجال مسلم فقط، وأورده الحافظ ابن حجر الهيثمي في "مجمع الزوائد"، وقال: "رجالہ ثقات"، 10/411.
- [7] هذا من المقلوب كما قال الجوهرى في "الصحاح"، (2/1688)، والمعنى: يَخْلَى بالعين.
- [8] "لسان العرب"، 9/356.
- [9] أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار من صحيحه، باب مناقب الأنصار، (7/110 فتح).
- [10] "فتح الباري"، 7/11.
- [11] تاريخ التراث العربي 1 / 452.
- [12] "الروض الأنف"، 1/205 – 214.
- [13] "وفيات الأعيان"، 3/177.
- [14] رواية محمد بن إسحاق، ص 41.

مصطلح السيرة.. أصله اللغوي وحقله الدلالي

د. عبدالرزاق مرزوك

تاريخ الإضافة: 2008/07/05 ميلادي - 1429/7/1 هجري

الحمد لله ولي النعمة والإفضال، العزيز الجبار الكبير المتعال، والصلاة والسلام على من  
حاز خصال الشرف جميعاً على جهة الكمال، وعلى آله وصحبه إلى يوم المآل.  
وبعد، فقد تقدم في المقالة الأنفة أن مصطلح السيرة أحوج ما يكون إلى الكشف  
والإبراز، وأن ما نال مصطلح الحديث من ذلك قد بلغ حدًّا أشعر الناس أن مصطلح السيرة  
مجرد فرعٍ عنه، وأشارت هناك إلى وجوه تميز مصطلح السيرة، ومسوغات استحقيقه  
الاستقلال.

وأشعر بإذن الله هاهنا في تفصيل ذلك بذكر أصل معناه في اللغة، وحقله الدلالي الذي  
سوغ انتقاله من عموم اللغة إلى خصوص الاصطلاح.

### 1- دلالة السير:

- السير في اللغة (الذهاب؛ كالمسير، والمسيرة، والسيورة، والاستيارة)[1].

والفعل: سار، ومضارعه يسير؛ لأن أصله سَيَرَ.

وهو يستعمل لازماً ومتعدياً، قال العلامة ابن منظور: (وسَارَ البعيرُ، وسِرَّتُهُ أنا، وسارت  
الدابة، وسارها صاحبُها: يتعدى ولا يتعدى)[2].

- ومعنى المتعدي: الركوب، فإذا أراد بها صاحبها المرعى قال: أَسَرَّتْهَا إلى الكلاءِ، ويقال  
أيضاً: أَسَارَ القومَ أهلهم ومواشيهم إلى الكلاءِ؛ وهو أن يرسلوا فيها الرعيان، ويقيموا هم.

ويستعمل المتعدي أيضاً؛ ويراد به الإبلاغ، قال الشاعر [3]:

فَأَذْكُرُنَّ مَوْضِعاً إِذَا التَّقَّتِ الْحَيَّ لُ وَقَدْ سَارَتِ الرَّجَالُ الرَّجَالَ

قال ابن منظور: (أي سارت الخيلُ الرجالَ إلى الرجالِ، وقد يجوز أن يكون أراد:

وسارت إلى الرجال بالرجال؛ فحذف حرف الجر ونصب، والأول أقوى).

وأشهر شاهد شعري يمثل به للمتعدى في هذه المادة قول خالد بن زهير الهذلي:

فَلَا تَجْرَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرَّتَهَا فَأَوَّلُ رَاضٍ سِيرَةً مَنْ يَسِيرُهَا [4]



والمعنى: أنت جعلتها سائرة في الناس.

- ومن المعاني التي يدل عليها تعلق هذه المادة بحروف الجر:

سايره: سار معه.

وتساير عنه الشيء: سار وزال، يقال: فلان لا تُسائِرُ حَيْلَاهُ؛ إذا كان كذابا.

ويقال: سِرَّ عنك؛ أي تغافل واحتمل.

- ومن أسماء المفعول: دابة مُسَيَّرَةٌ؛ إذا كان الرجل راكبها أو سائراً لها، والماشية مُسَارَةً،

والقوم مُسَيَّرُونَ، وطريق مُسَوَّرٌ فيه، ورجل مُسَوَّرٌ به.

- وأما دلالات بعض مصادر الآنفة:

فالمَسِيرَةُ تستعمل مصدرًا بمعنى السير؛ كالمعيشة، والمَعَجِزَةُ -بفتح الميم وكسر المعجمة- ويستعمل أيضًا بمعنى المسافة التي يسار فيها من الأرض، كالمنزلة والمتهمّة -بفتح الهاء-، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ) [5].

- ومن الأوصاف المشتقة من هذا الأصل: سَيْرَةٌ -كهمزة-، ومعناه الكثير السير.

هذا خلاصة ما اشتملت عليه معاجم اللغة من وجوه استعمال هذه المادة في لسان العرب، وقد لخص ابن فارس ذلك بقوله: (السين والياء والراء: أصل يدل على مُضَيِّ وجران) [6].

## 2 - دلالة السيرة:

قال العلامة ابن منظور -ملخصًا ما سبق، ومبينًا وجه انتقال (السَّيْر) من المصدرية إلى الاسمية-: (والاسم من كل ذلك السيرة) [7].

وهذا النقل -بالنظر إلى الغرض من هذه المبحث- لباب الصيغ الآنفة جميعًا، وقد ذكر أهل اللغة لاسم (السيرة) أربع دلالات؛ فقالوا: (السيرة: الضرب من السير، والسيرة: السنة، والسيرة: الطريقة، والسيرة: الهيئة) [8].

- فأما (الضرب من السير): فأصل الضرب الصَّيْغَةُ؛ يقال: (هذا من ضرب فلان؛ أي من صيغته؛ لأنه إذا صاغ شيئًا فقد ضربه) [9].

ويطلق الضرب ويراد به الصفة، والصنف من الأشياء؛ يقال: هذا من ضرب فلان؛ أي من نحوه وصنفه، قال الشاعر [10]:

أَرَاكَ مِنَ الضَّرْبِ الَّذِي يَجْمَعُ الْهُوَى وَحَوْلَكَ نِسْوَانٌ هُنَّ ضُرُوبٌ

والضرب أيضا: المثال، وقد بين ابن منظور أنه المراد من مثل قوله تعالى: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ} [11]؛ قال: (أي وصف وبين، وقولهم: ضرب له المثل بكذا؛ إنما معناه: بين له ضربًا من الأمثال؛ أي صنعًا منها) [12].

فالضرب من السير - على هذا - صيغة منه، وصفة منه، ومثال منه.

- أما (السُّنَّةُ): فمن الفعل: سَنَّ، وأصله (جريان الشيء واطراده في سهولة) [13]، ومرد استعماله في العربية إلى قولهم: سنتت الماء على وجهي سنًّا؛ إذا أرسلته إرسالا. وتطلق ويراد بها الصورة؛ قال ذو الرمة [14]:

ثُرَيْكَ سُنَّةٌ وَجْهٍ غَيْرٌ مُّفْرَفَةٍ مَلْسَاءَ لَيْسَ بِهَا حَالٌ وَلَا نَدْبٌ

قال ابن فارس: (ومما اشتق منه - يعني الأصل "سَنَّ" - السُّنَّةُ؛ وهي السيرة) [15]، وقال ابن منظور: (والسنة: السيرة حسنة كانت أو قبيحة) [16]، واستشهد بيت الهذلي الآنف:

فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا فَأَوَّلُ رَاضٍ سِيرَةً مَنْ يَسِيرُهَا

واستشهد أيضا بقول النبي صلى الله عليه وسلم - فيما رواه المنذر بن جرير عن أبيه رضي الله عنهما - : (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء) [17].

قال الراغب في مفرداته: [18] (وسنة الله تعالى قد تقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته نحو: {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي حَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [19]، و{لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} [20]).

فظهر بهذا أن السنة المضافة إلى الله تعالى أو إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا تكون إلا حسنة مستقيمة محمودة.

والسنة أيضا:(الوجه لصقالاته وملاسته)[21]، وقيل: (حُرُّ الوجه)، و(ما أقبل عليك منه).

والسنة أيضا (الطريق القويم)؛ قال في اللسان: [22](وسن الله سنة؛ أي بيّن طريقًا قويمًا؛ قال الله تعالى: { سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ } [23].

فظهر أن السنة: الصورة، والسيرة، والطريقة، والوجه، والطريق القويم.

- وأما (الطريقة): فمن (طَرَقَ)، وقد رده ابن فارس إلى أربعة أصول [24]: الإتيان مساء، والضرب، وجنس من استرخاء الشيء، وخصف شيء على شيء.

ورده الراغب إلى الضرب فقال: (الطريق: السبيل الذي يطرق بالأرجل؛ أي يضرب)[25]، واستشهد بقوله تعالى: { فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخَشْيَ } [26]، قال: (والطرق في الأصل كالضرب؛ إلا أنه أخص؛ لأنه ضرب بوقع كضرب الحديد بالمطرقة، ويتوسع فيه توسعهم في الضرب)[27].

وقال الجوهري في الصحاح: (الطريقة: أطول ما يكون من النخل بلغة اليمامة، والجمع طريق)[28]، واستشهد بقول الأعشى: [29]

طَرِيقٌ وَجَبَّارٌ رَوَاءُ أُصُولُهُ عَالِيهِ أَبَايِلٌ مِّنَ الطَّيْرِ تَنْعَبُ

وقال الفيروزآبادي: (الطريقة: النخلة الطويلة)[30].

فالطريقة إذن: أطول النخل.

والنخلة الطريقة: الملساء الطويلة.

وطريقة القوم -للجمع-: أمثالهم وخيارهم؛ يقال: هذا رجل طريقة قوم؛ (أي شريفهم وأمثالهم)[31]، وهؤلاء طريقة قومهم للواحد والجمع؛ (أي الذي ينبغي أن يجعله قومه قدوة فيهم، ويسلكوا طريقته)[32]، ومنه قوله تعالى: { وَيَذْهَبُوا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى } [33].

قال الإمام الشوكاني: (بسننكم، والمثلى: نعت؛ تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى؛ يعنون على الهدى المستقيم، والمثلى: تأنيث الأمثل، والمعنى: أهما إن يغلبا بسحرهما مال إليهما السادة والأشراف منكم، أو يذهبا بمذهبكم الذي هو أمثل المذاهب)[34].

والطريقة: الخط في الشيء، ومنه القول للخط الممتد على متن الحمار الوحشي: طريقة[35].

وطريقة الرجل: مذهبه؛ يقال: ما زال الرجل على طريقة واحدة.

والطريقة أيضاً: الحال؛ يقال: هو على طريقة حسنة، وطريقة سيئة؛ قال لبيد: [36]

فَإِنْ تُسَهِّلُوا فَالْسَّهْلُ حَظِّي وَطُرُقِي وَإِنْ تُحْزِنُوا أَرْكَبُ بِهِمْ كُلَّ مَرْكَبٍ

والطريقة: السيرة [37].

فهذه ثلاث دلالات للفظ الطريقة؛ تتقاسمها ثلاثة مراجع: الامتداد، والرفعة، والحال، لكن المهيمن عليها الأول الامتداد لكثرتة، وتوقف المعنيين الآخرين عليه؛ إذ لا يتصور التخلق بحال دون اعتياده، وطول طرقه.

كما لا تتصور الرفعة في شأن ما لم تطل استقامة صاحبه عليه.

- وأما (الهيئة) فأصله: هَاءٌ يَهَاءُ هِرْيَةٌ - بكسر الهاء وفتحها-؛ أي أخذ للأمر هيئة؛ كتهياً له.

والهَيْءُ - بفتح الهاء-: الحسن الهيئة من كل شيء.

والهَيْئَةُ: حال الشيء وكيفيته.

وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَشْرَاتِهِمْ إِلَّا الْخُدُودَ) [38]، قال ابن منظور: (هم الذين لا يعرفون بالشر؛ فيزل أحدهم الزلة؛ يريد به ذوي الهيئات الحسنة الذين يلزمون هيئة واحدة، وسمتاً واحداً؛ لا تختلف حالاتهم بالتنقل من هيئة إلى هيئة) [39]، وبين معناه الإمام ابن القيم في بدائعه [40].

والهيئة: الشارة.

فهذان معنيان للفظ الهيئة: حال الشيء وكيفيته، وشارة الشيء.

**خاتمة:**

هذا مجمل ما يقتضيه بيان معنى (مصطلح السيرة النبوية) من التمهيد بذكر دلالاته اللغوية، ومحيطه الدلالي، وهي سبيل أهل كل علم وديانهم حين يسألون عن دلالة مفردة من المفردات.

ولا يخفى ما بين علم الاصطلاح وعلم اللغة من وثيق الصلة، وأن اللغة قاعدة الاصطلاح، ومادته الأولى الرابطة بين شطري الدلالة (اللفظ والمعنى).

وقد ظهر من خلال هذا العرض ما يلي:

- 1 - السين والياء والراء: أصل يدل على مُضَيٍّ وجريان.
  - 2 - التاء اللاحقة بلفظ السيرة نقلته من المصدرية إلى الاسمية.
  - 3 - هذا النقل قاعدة المراد من استعمال هذا الإطلاق في الاصطلاح، ومن ذلك:
    - أ - صيغة من السير، وصفة منه، وصنف منه، ومثال منه.
    - ب - سيرة السائر، وسنته، وطريقته، وهيئته، وصورة سيره، وطبيعته، ووجهه.
    - ج - تعلق اسم السيرة بإحدى هذه الدلالات على وجه أخص منه في سائرهما؛ فقول أهل اللغة: (طريقة القوم: أمثالهم وخيارهم) فيه معنى (الإمامة في الخير). وفي ردهم معاني (الطريقة) إلى (الامتداد) و(الرفعة) معنى (الريادة)، و(التقدير)، و(التقديم).
    - د - هذه الدلالات هي الآليات الناظمة لعقد الصلة بين معنى السيرة في اللغة ومعناها في الاصطلاح.
- ولا يخفى استغراق سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لكل هذه المعاني، واشتمالها على جميع فروع دلالاتها على نحو أتم وأليق بجلال قدره الشريف، وجمال سمته المنيف، وذلك لازم اجتنائه واصطفائه، وداعي إجلاله والاحتفاء به تزلماً إلى الله جل وعلا، وتعلُّقاً برضاه، والله أعلم.

[1] لسان العرب: سير.

[2] نفسه.

[3] أورده صاحب المعجم المفصل في شواهد العربية (6 / 45) غير منسوب.

[4] أشعار الهذليين 1 / 157، وقد يكون هذا البيت لأبي ذؤيب الهذلي - خال خالد بن زهير - كما بين ذلك الأستاذ عبد السلام هارون في تحقيقه لمقاييس ابن فارس 3 / 121.

[5] طرف من حديث أخرجه البخاري في أول كتاب التيمم من صحيحه (1 / 435 - 436 فتح) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.. وتمامه (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا؛ فأبى رجل من

أمّتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم؛ ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة).

- [6] مقاييس اللغة 3 / 120.
- [7] لسان العرب 4 / 389.
- [8] لسان العرب، والقاموس المحيط، ومقاييس اللغة (سير).
- [9] مقاييس اللغة (ضرب).
- [10] لسان العرب وتاج العروس (ضرب) غير منسوب.
- [11] الروم: 28.
- [12] لسان العرب 1 / 549.
- [13] مقاييس اللغة: سَنَّ.
- [14] ديوان ذي الرمة (1 / 29 بشرح الباهلي).
- [15] مقاييس اللغة: سَنَّ.
- [16] لسان العرب: سَنَّ.
- [17] أخرجه مسلم في كتاب الزكاة من صحيحه؛ باب الحث على الصدقة وأنواعها، وأنها حجاب من النار (7 / 104 بشرح النووي).
- [18] مفردات ألفاظ القرآن: ص 429.
- [19] الفتح: 23.
- [20] فاطر: 43.
- [21] اللسان: سَنَّ.
- [22] نفسه 13 / 255.
- [23] الأحزاب: 38.
- [24] مقاييس اللغة: طَرَّقَ.
- [25] المفردات: ص 518.
- [26] طه: 77.
- [27] المفردات: ص 518.

- [28] الصحاح: طرق.
- [29] ديوان الأعشى: ص 251.
- [30] القاموس المحيط: طرق.
- [31] القاموس المحيط: طرق.
- [32] اللسان: طرق.
- [33] طه: 63.
- [34] فتح القدير 3 / 529.
- [35] اللسان: طرق.
- [36] ديوان لبيد: ص 20.
- [37] اللسان: طرق.
- [38] أخرجه أبو داود في كتاب الحدود من سننه (رقم 3803) عن عائشة رضي الله عنها، وهو في صحيح سنن أبي داود للألباني 3 / 827، رقم 3679.
- [39] اللسان 1 / 188.
- [40] قال رحمه الله في بدائع الفوائد - (3 / 640) - :-  
(والظاهر أنهم ذوو الأقدار بين الناس من الجاه والشرف والسؤدد؛ فإن الله تعالى خصهم بنوع تكريم وتفضيل على بني جنسهم، فمن كان منهم مستورا مشهورا بالخير حتى كبا به جواده، ونبا عصب صبره، وأدبل عليه شيطانه؛ فلا يسارع إلى تأنيبه وعقوبته؛ بل تقال عشرته ما لم يكن حدا من حدود الله؛ فإنه يتعين استيفاءه من الشريف كما يتعين أخذه من الوضيع).

### تعليقات الزوار:

1- تحية احترام وتقدير

عامر مرزوك - المغرب - AM 04:40 2008/08/04

السلام عليكم.....

حفظك الله والدي ورعاك وزاد في علمك وورعك وأطال في عمرك ونفع بأبحاثك  
ومقالاتك سائر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وجعلها جل شأنه في ميزان حسناتك  
يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .....  
والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

---

-2 .

حامد - مصر - 21/05/2009 11:23 PM

تتكون حياة كل إنسان وسيرته من نوعين من الوقائع :  
الأول : وقائع يتشكل بها (تاريخ حياته) بدءاً بولادته وظروف نشأته وانتهاءً بوفاته  
وظروف موته ، وطبيعة هذا النوع من الوقائع غير قابل للتكرار والإعادة .  
الثاني : وقائع تتشكل بها (طريقته في الحياة) ونهجه ومذهبه العملي فيها وتتألف من  
عاداته اليومية وسلوكياته المختلفة إزاء الحوادث والأشياء المحيطة به ، وطبيعة هذا النوع من  
الوقائع مكرّر ومعاد ومن هنا سمي (عادة) و (طريقة) .  
والأنبياء كبشر لا تشدّ حياتهم وسيرتهم عن هذا التقسيم .  
\* ونشكر الدكتور عبد الرازق مرزوك على هذا الموضوع المتميز